

كتاب: تزييف الوعي البشري، وإندازات الانقراض (2) بعض فكر يحيى الرخاوي: "إحياء التراث بالجدل"



نشرة "الإنسان" 2020/01/26

السنة الثانية عشرة - العدد: 4530

دكتوريسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

yehiatrakhawy@hotmail.com

تمهيد:

حين طلب منى أن أكتب عن الموقف من التراث باعتبار أنه يمكن أن يكون هرباً فيه أو هرباً إليه ترددت كثيراً أن أوافق على ذلك، أو أن أرفض ذلك، لأننى توقفت - بداية - عند محاولة تحديد "ما هو تراث" قيل أن أحاول النظر فى موقفنا منه، هرباً أو غير ذلك.

وقد بدأت حيرتى بهجوم أسئلة دالة تقول:

هل التراث هو مجرد ماضٍ نحكيه ونتناقله ثم ننتقى منه؟

أم رواية نجترها أو نتناساها حسب مقتضى الحال؟

أم تاريخ نقرؤه بفخر أو خجل حسب مقدار الصدق والكذب والحياء والمسئولية؟

المعجم (الوسيط) يقول:

التُّراثُ: الإِراثُ وهو ما ورث

فما هذا الذى ورث، وهل ما ورث هذا هو حاضر(بيولوجى) قائم فى تركيبنا (الآن)، أو هو وعى مائل أو متاح فى وجودنا الحالى، أو هو معلومات مودعة على أرفف المكتبات وفى بطون الوثائق وعلى الحواسب وديسكاتها؟

وما علاقة التراث بالتاريخ الخاص لأمة من الأمم، وهل الأولى، والأكثر واقعية ومواجهة ومسئولية، والأقرب إلى الطبيعة النمائية، هو أن نتعامل مع التراث باعتباره تاريخاً يزار، أو ملجأً نهرب إليه، أو إنجازاً ماضياً نتفحص ما تبقى من قدراته؟ أم أنه حاضر نجادله وننتقل منه وبه ومعه؟

لم أستطع، كذلك لم أجرو، أن أحاول الرد على كل هذه الأسئلة فى البداية، لكننى اكتفيت بأن أرفض ابتداءً:

(1) أن أنساق وراء التقليد الشائع الذى يتعامل مع التراث باعتباره ماضياً يحكى، أو مهرباً يغرى.

(2) أن أقصر التراث على ما هو مسجل تاريخياً (صدقا أو غير ذلك علماً بأنى أعامل حتى ما يصدق من التاريخ باعتباره إشاعة راجحة لوجهة نظر محدودة، مهما بلغت دقة تسجيلها وسلامة منهجها).

وبدلاً من هذا وذاك، قلت أحاول أن أتعامل مع التراث المائل أمامى "هنا"، ذلك أنه لاح لى بديل

يقول:

هل التراث هو مجرد ماضٍ نحكيه ونتناقله ثم ننتقى منه؟ أم رواية نجترها أو نتناساها حسب مقتضى الحال؟ أم تاريخ نقرؤه بفخر أو خجل حسب مقدار الصدق والكذب والحياء والمسئولية؟

هل الأولى، والأكثر واقعية ومواجهة ومسئولية، والأقرب إلى الطبيعة النمائية، هو أن نتعامل مع التراث باعتباره تاريخاً يزار، أو ملجأً نهرب إليه، أو إنجازاً ماضياً نتفحص ما تبقى من قدراته؟ أم أنه حاضر نجادله وننتقل منه وبه ومعه؟

اكتفيت بأن أرفض ابتداءً: (1) أن أنساق وراء التقليد الشائع الذى يتعامل مع التراث باعتباره ماضياً يحكى، أو مهرباً يغرى

إن التراث هو حاضر فاعل يتجاوز ما أتعبه رموزاً فى وثائق يقال لها التاريخ

التراث كحاضر بيولوجى، مسجل فى خلايانا الحية الآن، وورثناه حياً من حى، قبل أن نرثه أباً عن جد.

إن التراث هو حاضر فاعل يتجاوز ما أثبت رموزا في وثائق يقال لها التاريخ.

وثائق لا يمكن إغفالها، كما لا يمكن الاكتفاء بها، وهذا الحاضر الفاعل يشمل بعدين أساسيين هما:

1- التراث كحاضر بيولوجي، مسجل في خلايانا الحية الآن، ورثناه حيا عن حي، قبل أن نرثه أبا عن جد.

2- التراث كوعى شعبي مرصود في عادات، وتقاليد، وأغان، ورقصات، وأمثلة وأساطير ممتدة.

وسوف يكون تركيزي في هذا المقال على البعد الأول دون الثاني.

وفي ذلك أقول:

إن الفرض الذي أطرحه هنا لفهم التراث وتحمل مسؤوليته يزعم أن الإنسان، فردا، أو جنسا، أو جماعة، أو نوعا إنما هو تاريخه المائل الآن، بمعنى أن التاريخ الصادق الوحيد هو ما بقي حتى الآن مسجلا في خلايانا: بيولوجيا: فاعلا وكامنا وجاهزا للتنشيط والجدل.

فإن صح ذلك (أنظر بعد) فإن الوسيلة الوحيدة لمعايشة التراث هي مواجهته "هنا والآن"، لا استدعاؤه، أو قراءته، وإنما تعريته، ومخاطبته، والجدل معه وبه.

وقبل أن أستطرد في طرح بعض أبعاد هذا الفرض، أود أن أشير إلى قليل من أسسه: من المعلومات، والنظريات، والحقائق، والفروض السابقة على الوجه التالي:

أولا: مازالت نظريات التطور (داروين خاصة) محل جدل طويل، بعضه عقيم، لا بسبب استحالة إثباتها طولا-كما يزعمون، ولكن بسبب تراجع تحمل مسؤوليتها عرضا، ومستقبلا

ثانيا: تراوحت الآراء حول وراثة العادات المكتسبة، من أول "لامارك" الذي قال بها حتى الداروينيين المحدثين المؤيدين بعلماء الوراثة الأقدم الذين أنكروها، مارين بداروين شخصيا الذي علق الأمر دون حسم. لكن البندول قد انتقل مؤخرا إلى الاعتراف المبدئي، دون تفصيل دقيق، أو يقين حاسم، بصحة وراثة بعض آثار أنواع معينة مطبوعة من التعلم (ليست بالضرورة "عادات")

ثالثا: يؤكد ذلك: الدراسات الباكورة حول ظاهرة البصم Imprinting، وهي ظاهرة تشير إلى نوع كامن من التعلم لا يتبع مبدأ المثير والاستجابة، بل مبدأ المطلق و Releaser-unfolding البسط، حيث لا يحتاج السلوك المطبوع إلا أن يطلق فينبسط متكاملا، وهذا ما سمي بالتعلم بالبصم، وهو يؤكد انتقال هذا التعلم جاهزا إلى أجيال تالية، ويتميز هذا النوع من التعلم عن النوع الأكثر شيوعا وهو التعلم الشرطي بميزات لا مجال لتفصيلها حالا.

رابعا: واكب ذلك إضافات دالة نتيجة للتقدم الرائع في تقنيات دراسة النشاط النوعي والكمي والموضعي لبعض أجزاء ومستويات الدماغ، وخاصة فيما يتعلق بما يسمى "المطاوعة النيورونية" Neural plasticity وقد أظهرت هذه الدراسات كيف يمكن أن يتكيف، ويتغير، وتنظيم تركيب المخ، نتيجة لخبرات يعايشها صاحبها في البيئة المحيطة⁽³⁾، وخاصة تلك الخبرات الجذرية المغيّرة للسلوك الأعمق، أو المرتبطة بالبقاء والتطور.

خامسا: تدعمت هذه الدراسات الجينية والتعلمية بالدراسات الخاصة بالذاكرة،⁽⁴⁾ وخاصة فيما يتعلق بدور حامض "الدنا" (ديسوكسي ريبونوكليك DNA) (ودوره المحوري في كل من الوراثة والتعلم وأصل الحياة.

سادسا: أحييت هذه الدراسات ما كان قد أهمل من نظريات نفسية، وهي الدراسات التي ترى الإنسان في بعده الطولي، تركيبا هيراركيا متكاملا، يحتوى الأحداث منه الأقدم ليتكامل معه لا ليحويه، ولا ليحل - تماما- محله، (وهذه الاتجاهات قد تكاملت مؤخرا في بعض النظريات النفسية ذات النظرة الغائية مثل

إن الفرض الذي أطرحه هنا لفهم التراث وتحمل مسؤوليته يزعم أن الإنسان، فردا، أو جنسا، أو جماعة، أو نوعا إنما هو تاريخه المائل الآن

أن التاريخ الصادق الوحيد هو ما بقي حتى الآن مسجلا في خلايانا: بيولوجيا: فاعلا وكامنا وجاهزا للتنشيط والجدل

إن الوسيلة الوحيدة لمعايشة التراث هي مواجهته "هنا والآن"، لا استدعاؤه، أو قراءته، وإنما تعريته، ومخاطبته، والجدل معه وبه.

مازالته نظريات التطور (داروين خاصة) محل جدل طويل، بعضه عقيم، لا بسبب استحالة إثباتها طولا-كما يزعمون، ولكن بسبب تراجع تحمل مسؤوليتها عرضا، ومستقبلا

الدراسات الباكورة حول ظاهرة البصم Imprinting، وهي ظاهرة تشير إلى نوع كامن من التعلم لا يتبع مبدأ المثير والاستجابة، بل مبدأ المطلق و Releaser-unfolding البسط

لا يحتاج السلوك المطبوع إلا أن يطلق فينبسط متكاملا، وهذا ما سمي بالتعلم بالبصم

أظهرت هذه الدراسات كيف يمكن أن يتكيف، ويتغير، وتنظيم تركيب المخ، نتيجة لخبرات يعايشها صاحبها في البيئة المحيطة⁽³⁾، وخاصة تلك الخبرات الجذرية المغيّرة للسلوك الأعمق، أو المرتبطة بالبقاء والتطور

أحييت هذه الدراسات ما كان قد أهمل من نظريات نفسية، وهي الدراسات التي ترى الإنسان في بعده الطولي،

تركيبا هيراركيًا متكاملًا،
يحتوي الأحدث منه الأقدم
ليتكامل معه لا يمحوه، ولا
يلحل - تمامًا - محله

ظهرت نظريات أحدث تجمع
بين التنظيم الهيراركي للمخ
تاريخًا وحاضرًا، وبين تعدد
الذوات (الذات الطفلية
Child Ego State، وما
يقابلها من تنظيم بدائي يقال
له الذات الأقدم Arche
psyche، والذات الوالدية
Parent Ego Stat

إن التراث الحقيقي للإنسان:
نوعًا، وجماعة، وفردًا، هو
مسجل بكل الدقة والتفاصيل،
في الحامض النووي عامة،
وفي التنظيمات البيولوجية
الخلوية، والمنظوماتية للدماغ
البشري ثابته

إن هذا التراث هو حاضر
حالا، وإن كان غير مستقل
أبداً في حالات الصحو
والسلامة

أحاول، ولو بقياس تعسفي، أن
أؤازي بين هذا الذي نظمته
النيورولوجيا، وبين ما
يمكن أن نقوم به في مواجهة
وحمل مسئولية تراث الجماعة
الخاتمة، فالعامة، فالإنسان

الحلم من هذا المنطلق، هو
طور أو مرحلة محدودة،
ومنظمة، ودورية للتراث
البيولوجي الكامن في المخ

هذه المرحلة ليست لمجرد
الراحة، أو التبادل التفرغي،
وإنما يترتب -مادة - على
نشاط هذه المرحلة نوع من
التكامل مع بعض ذخائر
التراث البيولوجي

يحدث مع كل حلم - تذكرناه
أو لم نتذكره - نوع من
الإحكام Consolidation
والتنظيم Modulation

نظريات علم النفس الإنساني عموماً و "ماسلو" خصوصاً، على أننا قد يمكن أن نتعرف على بعض جوانب هذا الاتجاه في نظريات أخرى أقدم وأعمق، مثل منظور النماذج البدائية عند كارل يونج وكيفية استيعابها في عملية النمو التكاملي الفرد Indviduation

سابعاً: ظهرت نظريات أحدث تجمع بين التنظيم الهيراركي للمخ تاريخاً وحاضرًا، وبين تعدد الذوات (الذات الطفلية Child Ego State ، وما يقابلها من تنظيم بدائي يقال له الذات الأقدم Arche psyche، والذات الوالدية Parent Ego State ، وما يقابلها من تنظيم قديم جاهز للبرمجة من سلطة خارجية، يقال له الذات الخارجية Extero psyche، ثم الذات اليافعة Adult Ego State، وما يقابلها من تنظيم الذات الأحدث Neo psyche وهذه التعريفات، والتنظيمات هي من لغة ومصطلحات نظرية التحليل التفاعلاتي - Transactional analysis إريك بيرن- الذي يبدأ بالتحليل التركيبي Structural analysis وكلها تنظيمات نيورولوجية فينومولوجية، وليست مفاهيم رمزية تجريدية)
من خلال هذه المعطيات الأقدم والأحدث انتهيت إلى تدعيم الفرض الحالي قائلاً:

إن التراث الحقيقي للإنسان: نوعاً، وجماعة، وفرداً، هو مسجل بكل الدقة والتفاصيل، في الحامض النووي عامة، وفي التنظيمات البيولوجية الخلوية، والمنظوماتية للدماغ البشري ثابته، وإن هذا التراث هو حاضر حالاً، وإن كان غير مستقل أبداً في حالات الصحو والسلامة.

وهكذا وجدنتى أتعامل مع التراث وجهاً لوجه، ماثلاً "هنا والآن"، وقلت أبداً بالنظر في التركيب الفردي، لأطرح تنويعات وتباديل، واحتمالات تعامل الإنسان مع تاريخه القائم فعلاً في تركيبه الآتي، ثم أحاول، ولو بقياس تعسفي، أن أؤازي بين هذا الذي نظمته النيورولوجيا، وبين ما يمكن أن نقوم به في مواجهة وحمل مسئولية تراث الجماعة الخاصة، فالعامة، فالإنسان.

تجليات التراث الدماغى:

لا يوجد مدخل لمعرفة علاقة الأقدم بالأحدث في تنظيمات المخ البشرى، (مع احتمال وجود ما يقابلها داخل الخلايا من جهة، وفي الكون عامة من جهة أخرى) أفضل من النظر في التناوب الذى ينظمه الإيقاع الحيوى فى الأحوال العادية للإنسان الفرد، حيث يجرى بشكل نابض منتظم تبادل بين نشاط مستويات المخ، أثناء النوم واليقظة، ثم أثناء النوم: بين النوم الحالم والنوم غير الحالم..إلخ، (هذا إلى جانب الجدل الولاى على مسار النمو الطولى، مما سنؤجل الحديث عنه الآن).

الحلم من هذا المنطلق، هو طور أو مرحلة محدودة، ومنظمة، ودورية للتراث البيولوجي الكامن في المخ، وهذه المرحلة ليست لمجرد الراحة، أو التبادل التفرغي، وإنما يترتب -عادة - على نشاط هذه المرحلة نوع من التكامل مع بعض ذخائر التراث البيولوجي، حيث يحدث مع كل حلم - تذكرناه أو لم نتذكره - نوع من الإحكام Consolidation و التتظيم Modulation لمنظومات المعلومات الأحدث مع الأقدم، وباستمرار.

ثم إن الإبداع من هذا المنطلق أيضاً، هو العملية التى تتم فيها مثل هذه الزيارة إلى التراث البيولوجي، بما تعد من الإحكام والتنظيم، ثم يتمادى الأمر بدرجة من الوعى والإرادة لإعادة التنظيم والتوليف حتى يتولد الأصيل الجديد المتجدد.

إن: فالتراث المسجل بيولوجيا موجود طول الوقت، ومتاح فى الأحوال العادية للنائم خاصة أثناء نشاط الحلم فى سياق حالة "وعى آخر".

كما أنه متاح للمبدع فى حالة وعى فائق (وعى: هو جماع ولافى من وعى اليقظة العادى، والوعى الأقدم)

وعلى ذلك نخلص إلى القول بأن: علاقة الحاضر بالماضى على المستوى البيولوجي هي علاقة

هذا فى حالة السواء العادى.

أما فى حالات الإبداع فإن المخ القديم يصبح دافعا وموردا رائعا لطاقة ومواد متنوعة وخام، بحيث يستطيع المخ الأحدث أن يعيد صياغتها جنبا إلى جنب مع ما يحصله من معلومات أحدث، وما يمارسه من واقع أنى، فهى علاقة جدلية خلاقة بين التراث الكامن، والحاضر القادر

أحوال التراث فى تنويعات المرض:

أما فى الأحوال المرضية فإن علاقة مستويات المخ ببعضها تتنوع مُعَوَّقة أو مُثَلِّلة أو مفسخة:

(1) فى الجنون التفسخى (الفصام غالبا): بدلا من أن تظل أقدم مستويات الوجود والمخ، متداخلة ومتبادلة مع بقية التنظيمات والمستويات، فإنها تستقل، وتقود إذ تسحب الوجود إلى مرحلة بدائية نكوصية، تاركة وراءها، آثار التفسخ والعجز اللذان يصيبان المستويات الأحدث نتيجة الإزاحة، والإشلال، والإفقار.

(2) وفى أغلب حالات اضطرابات الشخصية: يطغى المخ الأحدث - ملوثا - حتى يستبعد أى تعاون أو تبادل دورى مع المستويات الأقدم وهو ما أصبح يسمى حديثا "فرط العادية-Hyper normality"

(3) وفى بعض حالات اضطرابات الشخصية الأخرى يبدو الأمر وكأن اتفاقا - بل تلفيقا تصالحيا - قد حسم الخلاف بين المستويات وبعضها، فيقوم المخ الأحدث السائد بخدمة أهداف المخ الأقدم دون أن يظهر الأخير فجًا بعدوانيته، وبدائيته، وذاتيته، ونرجسيته وجذبه الانسحابى وهكذا يحقق كل أغراضه البدائية من خلال المظاهر شبه العادية، وشبه الحديثة حيث يقوم بتنفيذها - نيابة عنه- المخ الأحدث نتيجة هذا الاتفاق (السرى) عادة.

القياس المحتمل:

فإذا استلهمنا هذا النموذج البيولوجى - المرضى - فإننا نستطيع أن نعيد تصنيف علاقتنا بالتراث عامة على الوجه التالى:

الاحتمال الأول: (النكوص = التدهور): وفيه يقود التراث مهما كان قديما وجامدا، طبيعة ومسيرة الوجود الأنى، فيقودنا إلى التكرار، والنمطية، والحلقات المغلقة، والوجود المثقوب والجمود.

وهذا نوع من التدهور العام الذى يقابل، فى حالة الفرد، الجنون السلبى الذى يتمثل فى غلبة المخ الأقدم، ثم التدهور العاجز

وهو ما يقابل فى واقعنا: الحركات الأصولية أو السلفية الداعية إلى العودة إلى القديم حرفيا، وتزويقه وتبريره إن أمكن، وكذلك الفخر بمنجزاته والمبالغة فى إنكار سلبياته.

الاحتمال الثانى: (التسطيح = التسطيح): وهو الاتجاه إلى المبالغة فى إلغاء القديم تماما، وإنكار تأثيره، حيث يتم الاكتفاء باللغة الأحدث، والإنجازات الأحدث،، فنمضى مثل أشباه القردة المبرمجة، إلى لا شىء، رغم ظاهر ما يسمى المعاصرة أو التنوير وما إلى ذلك،

وهذا هو ما يقابل ما أسميناه - فى حالة الفرد- فرط العاديةية Hyper normality (وهو نوع من اضطراب الشخصية)

وأىضا هو ما يقابل الحركات شبه العلمية المتعصبة للمناهج الحديثة المختزلة والمختزلة.

الاحتمال الثالث: (التلفيق = التلوث): وهو يعنى هذه المحاولات الخائبة التى تضع الحديث فى خدمة

إن الإبداع من هذا المنطلق أيضا، هو العملية التى تتم فيها مثل هذه الزيارة إلى التراث البيولوجى، بما تعد من الإحكام والتنظيم، ثم يتماهى الأمر بدرجة من الوعى والإرادة لإعادة التنظيم والتوليف حتى يتولد الأصل الجديد المتجدد

التراث المسجل بيولوجيا موجود طول الوقت، و متاح فى الأحوال العادية للذات خاصة أثناء نشاط العلم فى سياق حالة "وعى آخر".

علاقة الحاضر بالماضى على المستوى البيولوجى هى علاقة حاضر متاح، يحاضر كامن، وليست علاقة القديم بالحديث بالمعنى الزمنى الطولى.

فى الأحوال المرضية فإن علاقة مستويات المخ ببعضها تتنوع مُعَوَّقة أو مُثَلِّلة أو مفسخة

فى الجنون التفسخى (الفصام غالبا): بدلا من أن تظل أقدم مستويات الوجود والمخ، متداخلة ومتبادلة مع بقية التنظيمات والمستويات، فإنها تستقل، وتقود إذ تسحب الوجود إلى مرحلة بدائية نكوصية، تاركة وراءها، آثار التفسخ والعجز اللذان يصيبان المستويات الأحدث نتيجة الإزاحة، والإشلال، والإفقار

الاحتمال الأول: (النكوص = التدهور): وفيه يقود التراث مهما كان قديما وجامدا، طبيعة ومسيرة الوجود الأنى، فيقودنا إلى التكرار، والنمطية، والحلقات المغلقة، والوجود المثقوب والجمود

هو ما يقابل فى واقعنا:

الحركات الأصولية أو السلفية
الداعية إلى العودة إلى
القديم حرفيا، وتزويقه
وتبريره إن أمكن، وكذلك
الفخر بمنجزاته والمبالغة في
إنكار سلبياته

الاحتمال الثاني: (القشرية =
التسطيح): وهو الاتجاه إلى
المبالغة في إلغاء القديم
تماما، وإنكار تأثيره، حيث يتم
الاحتفاء باللغة الأحدث،
والإنجازات الأحدث

هو ما يقابل الحركات شبه
العلمية المتعصبة للمناهج
الحديثة المختزلة والمختزلة

الاحتمال الثالث: (التلفيق =
التلويح): وهو يعنى هذه
المحاولات الغائبة التي تضع
الحديث في خدمة القديم
(التراث) لتبرير العودة إليه،
فتشوه الاثنين معا، رغم
الاحتفاظ بظاهر شعارات لغة
الأحدث

الاحتمال الرابع: (الانشقاق:
لفظ الاشتباك) وهنا يتم فض
الاشتباك لتحقيق توازن شكلي
بحيث لا يلتقي التراث مع
الحاضر إلا بمعاهدة صلح
مشبوهة، فيقال إن التراث
(بما في ذلك تراث الأديان
والإيمان والحدس.. إلخ)، هو
نشاط وجداني، في حين أن
معطيات العصر ومناهجه هي
نشاط فكري

إن هذا التراث المائل فينا
الآن، هو كامن مادة، إذ لا
يمكن أن يسود أو يستقل إلا
في حالات النكوص
والتدهور، وكمونه هذا لا
يعنى خموله أو ثانويته، بل هو
ينبئ إلى ضرورة التبادل معه،
والجدل من خلال تنشيطه

إن الجدل بين هذا التراث
البيولوجي المائل فينا-

القديم (التراث) لتبرير العودة إليه، فتشوه الاثنين معا، رغم الاحتفاظ بظاهر شعارات لغة الأحدث. وقد
يتمادى هذا الاتجاه إلى تفسير القديم (التراث) بأبجدية الحديث، بل قد يتمادى الأمر إلى محاولة إثبات
وتأكيد سبق القديم (التراث) لما جاء به الحديث (بما في ذلك العلم الحديث!).

وهو ما يقابل - في حالة الفرد- نوعا آخر من اضطرابات الشخصية.

وأيا هو ما يقابل ما يحدث في مجتمعاتنا بإفراط متزايد تحت عناوين مثل التفسير العلمي (العلم
الحديث) للتراث (بما في ذلك القرآن) وما إلى ذلك.

الاحتمال الرابع: (الانشقاق: لفظ الاشتباك) وهنا يتم فض الاشتباك لتحقيق توازن شكلي بحيث لا
يلتقي التراث مع الحاضر إلا بمعاهدة صلح مشبوهة، فيقال إن التراث (بما في ذلك تراث الأديان والإيمان
والحدس.. إلخ)، هو نشاط وجداني، في حين أن معطيات العصر ومناهجه هي نشاط فكري، وأن الانسان
المعاصر يحتاج إلى هذا وذلك معا، وهذا احتمال تلفيقي تصالحي خطير، لم أذكر ما يقابله في حالة
الفرد، حيث يحتاج إلى تفصيل خاص، إذ أنه يقع بين السواء والمرض لأنه يتم بانشقاق شبه تصالحي:
يوقف النمو، لكنه لا يحدث مرضا صريحا عادة اللهم إلا بعض الصعاب السطحي المؤقت.

ويقابل ذلك تلك المحاولات التوفيقية (التلفيقية أحيانا) التي تحاول أن تحترم التراث، لكنها لا تقتحمه،
وهي قد تفسره لكنها لا تستلهمه، وهي تستحضره لكنها لا تحييه، وأشير باحترام واعتذار لبعض محاولات
زكى نجيب محمود مثلا في هذا الصدد.

الخلاصة واقتراحات المواجهة:

نخلص من كل ذلك إلى عدة استنتاجات أساسية، نأمل أن تهدينا إلى اقتراحات عملية:

أولاً: إن التراث الحي موجود "هنا والآن" بداخلنا قبل وبعد رصده في كتب التاريخ أو روايات
الأقدمين (هذا فضلا عن حضوره السابق الإشارة إليه في صورة تقاليد، أو أمثال، أو أساطير أو أغان
وممارسات شعبية مما قد نعود إليه في حديث آخر).

ثانياً: إن هذا التراث المائل فينا الآن، هو كامن عادة، إذ لا يمكن أن يسود أو يستقل إلا في حالات
النكوص والتدهور، وكمونه هذا لا يعنى خموله أو ثانويته، بل هو ينبئ إلى ضرورة التبادل معه، والجدل
من خلال تنشيطه (أنظر بعد).

ثالثاً: إن الجدل بين هذا التراث البيولوجي المائل فينا-"الآن"- بكمونه الجاهز للتنشيط، وبين
المعطيات الأحدث، بالأدوات العصرية الأقدر، والمعلومات المتدفقة المتجددة أبداً، هو الإبداع الحقيقي
الذي يمكن أن يميز ثقافة ما من ثقافات البشر المعاصرة، ثقافة لها هويتها المتميزة نوعيا، والقادرة على
الإسهام التضفري مع ثقافات أخرى مواكبة، تتجادل مع تراثها الخاص والعام طول الوقت.

رابعاً: إنه بغير التربية التي تسمح للتراث البيولوجي (الذي هو حاضر كامن متبادل مجادل معا) أن
يسهم في تشكيل الوعي الفردي والجمعي لا يمكن أن يتكامل الإنسان فردا أو جماعة وسيظل: إما هيكلا
هشا بلا جذور، أو أثرا كالحا بلا حياة.

خامساً: إنه ينبغي أن نحسن التفرة بين ميوعة التلفيقية الشائعة بين القديم والمعاصر، والتي تركز
على الترجمة الخائبة والمتعسفة إلى لغة أحدث، أو على التسوية الهامدة التي تقتطف من القديم جزءا
لتلصقه إلى جزء أحدث، أو تصيغ نفس القديم بأبجدية أكثر معاصرة، نفرق بين ذلك وبين ما ندعو إليه
ونأمل فيه من جدل مبدع مع ما يمكن تنشيطه من التراث البيولوجي الحاضر والجاهز دوما.

سادساً: إنه من خلال هذا الفرض يتبين لنا أن التراث (البيولوجي خاصة) ليس قديما أصلا، بل هو
حاضر شديد الثراء، وافر العطاء، لا يظهر في إيجابيته إلا من خلال ناتج جدله مع الواقع الآني الحي.

سابعاً: إن ما يسمى "التراث" (تقليدياً: كما هو شائع في أغلب الأحوال) وهو المسجل رموزاً في كتاب، أو معلومات في تاريخ، أو منهج في نظرية، لا ينبغي أن تقتصر معرفتنا به لتقيد الإلمام بتاريخنا الخاص، كما لا ينبغي أن نستعمله مهرباً نلجأ إليه ندارى به عجزنا الحالى.

ثامناً: إن هذا التراث المكتوب، فى صورة مراجع، أو تاريخ، هو ضرورى ومهم أيضاً، لأنه القادر على إثارة ما يقابله فى تركيبنا الأتى، فالواجب أن نعايشه ونحن نقرأه، لا أن نكتفى بحفظه، أو تسميعه، أو الفرجة عليه، أو الاستشهاد به أو حتى الفخر به. وبألفاظ أخرى: إنه يعتبر المُطَقِّق Releaser المناسب، لتراثنا البيولوجى المطبوع فىنا، إذا أخذنا نظرية التعلم بالبصم قياساً لما نريد إيضاحه.

وبعد

فإذا كان التراث حاضراً لا يمكن قراءته إلا من خلال جدل مبدع مع حاضر آخر أقدر وأرحب، فإن من يصوره لنفسه ولنا مهرباً آمناً، أو بديلاً جاهزاً إنما يلغى كلا من حاضره المعاصر، وتراثه الكامن معاً.

- [1] المقتطف من كتاب "تزييف الوعى البشرى، وإنذارات الانقراض" بعض فكر يحيى الرخاوى (الطبعة الأولى 2019) وصورته الأولى كانت مقالات فى (مجلة سطور) (من يوليو 1997 إلى يوليو 2006 + 1) والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضاً بموقع المؤلف www.rakhawy.net وهذا هو الرابط

- [2] مجلة سطور: (عدد أكتوبر - 1998)

- [3] أضيف مؤخراً بعد كتابة هذا المقال حقيقة نيوروبولوجية جديدة رائعة وهى أن المخ يعيد بناء نفسه باستمرار.

The Brain That Changes Itself" Stories of Personal Triumph from the Frontiers of Brain science" Edited by: Norman Doidge, M.D. Copyright: 2007

- [4] أضيفت كذلك أبعاد للذاكرة وكيف أنها تتواجد فى المخ وخارجه معاً، ويمكنك الرجوع إلى محاضرة روبرت شيلدريك: "العقل الممتد The Extended Mind" على موقع اليوتيوب.

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD260120.pdf>

*** **

مؤسسة العلوم النفسية العربية

معاً نصل أبعد...

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsynet.com>

الكتاب السنوي 2020 "شبكة العلوم النفسية العربية" (الاصدار السابع)

الشبكة تطفئ شمعها التاسعة عشر وتدخل عامها العشرين من التأسيس

19 عاماً من الضج... 17 عاماً من التواحل "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

(رابط الكتاب)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

"الآن" - بكمونه الجاهز للتنشيط، وبين المعطيات الأحدث، بالأدوات العصرية الأحدث، والمعلومات المتدفقة المتجددة أبداً، هو الإبداع الحقيقى الذى يمكن أن يميز ثقافة ما من ثقافات البشر المعاصرة

من خلال هذا الفرض يتبين لنا أن التراث (البيولوجى خاصة) ليس قديماً أصلاً، بل هو حاضر شديد الثراء، وأمر العطاء، لا يظهر فى إيجابيته إلا من خلال ناتج جدله مع الواقع الأتى الحى

إذا كان التراث حاضراً لا يمكن قراءته إلا من خلال جدل مبدع مع حاضر آخر أقدر وأرحب، فإن من يصوره لنفسه ولنا مهرباً آمناً، أو بديلاً جاهزاً إنما يلغى كلا من حاضره المعاصر، وتراثه الكامن معاً